

يقول ابن جني في الخصائص: "وذلك أنّ العرب كما تُعنى بألفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها، وتلاحظ أحكامها، بالشعر تارةً وبالخطب أخرى (...). فإنّ المعاني أقوى عندها، وأكرم عليها، وأفخم قدراً في نفوسها، فأول ذلك عنايتها بألفاظها، فإنّها لما كانت عنوان معانيها، وطريقاً إلى إظهار أغراضها، ومراميها، أصلحوها، وربّوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها؛ ليكون ذلك أوقع لها في السّمع، وأذهب بها في الدّلالة على القصد؛ ألا ترى أنّ المثل إذا كان مسجوعاً لذّ لسامعها فحفظه، فإذا هو حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعاً لم تأنس النّفس به، ولا أنقت لمستمعه..."

السؤال: بيّن كيف ربط ابن جني قضية اللفظ والمعنى عند العرب بقضية الاستعمال والقصد.

يتبيّن من خلال هذا القول أنّ اهتمام العرب باللفظ كان من أجل تحقيق المعنى، أو تحقيق المقاصد، هذا يعني أنّ العناية بالألفاظ يقتضي العرف في الاستعمال. وهذه المسألة الأخيرة هي التي ركّز عليها ابن جني من خلال توظيفه بعض المصطلحات التي اتخذها هدفاً في تحقيق نظريته من قبيل: (طريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها وأذهب بها في الدّلالة على القصد).

إنّ أوّل ما يلفت الانتباه في هذا النصّ الدقّة المتناهية في حدّه الحقيقة، فلقد ذكر فيه مصطلحات: اللفظ والمعنى والأغراض والدلالة والقصد والاستعمال ضمن السياق الاجتماعي الذي أرجعه إلى عرف العرب في ربط قضية اللفظ والمعنى بقضية الاستعمال والقصد معاً، حيث علّق بالأوّل خاصية العناية، وبالتالي فعل التأثير، فجاء الاستعمال عنده إقراراً بمواضع لغوية ينتج عنه أنّ قضية اللفظ والمعنى بمثابة ممارسة لغوية تقرّ القوانين التّواضعية من حيث الدقّة في التوظيف وبذلك نجد المقابلة بين اللّغة والاستعمال إلى كونها مقابلة بين استعمالين: استعمال لغوي ومقصد اجتماعي.

وكلّ هذه المواقف التي ذكرت سابقاً تؤكد على أنّ المناخ الفكري الذي فرض مفهوم الشّجاعة هو المتعلق بالنقطة المنهجية من عدّ القوانين اللغوية غايةً أو وسيلةً، والرؤية السابقة تؤكد الخروج من ضيق القوانين إلى سعة الاستعمال.

وقد لاحظ الباحث " عبد الرّحمن الحاج صالح " الخلط المنهجي للباحثين في هذا الموضوع حين أكّد: " أنّ كيفية استعمال اللّغة شيءٌ وبنية اللّغة في ذاتها شيءٌ آخر، وتفسير هذا بهذا يؤدي إلى مازق، فكلّ منهما ميدان خاصّ، فهناك اللّغة وهي من حيث دلالة ألفاظها اعتباطية وليست منطقية ولا عقلية ولا شيء من هذا... أمّا في حال الخطاب أي عند الاستعمال الفعلي للّغة، فقد تدلّ الألفاظ على معنى وليس هو المراد، وذلك مثل عبارة الخنساء (طويل النّجاد) فللنّجاد معنى وضعي وهو غمد السيّف، وليس هو المقصود ههنا، إنّما المقصود من طويل النّجاد هو طويل القامة، فالعلاقة بين طويل النّجاد وطويل القامة علاقة عقلية وليست اعتباطية وهذا ما تبيّن للنّحاة... فما هو راجع إلى اللفظ له قوانينه الخاصّة به غير قوانين استعمال اللفظ... فإن كان كتاب سيبويه غير خالٍ من الاعتبارات البلاغية فليس معناه أنّه يجعل التّحليل لبنية اللّغة هو التّحليل لوظيفتها التّبليغية، فسيبويه يلجأ إلى هذه الوظيفة كلّما خرج عن التّفسير للبنية اللفظية وكيفية مطابقتها للقياس أو مخالفتها له... "

